امرأة العزيز أعظم تائبة في التاريخ

هذه الدراسة مستلة من بحثنا حول علاقة سورة يوسف بحادث الهجرة النبوية الشريفة، رأيت أن أشارك بها عندما رأيت كثرة الحديث عن(حقوق المرأة في الإسلام)، وكافة الدراسات حول المرأة خصوصاً على صفحة المنتدى، ولما رأيت أن امرأة العزيز كانت قد ظلمت من خلال الدعاة والدارسين والقراء لسورة يوسف، فهم لا يذكرون لها إلا المراودة ويروح القراء يعيدون ويزيدون بالقراءات العشر في آية المراودة ويختمون القراءة عند قول يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾. ولا يذكرون لها توبتها النصوح وثمن هذه التوبة حينما تجاهر بها في الاجتماع الملكي، وينسون لها توحيدها لله جل علاه ، وشجاعتها الفائقة في مواجهة الباطل وإظهار كلمة الحق ،،

لذلك أقول لها :

سيدتي امرأة العزيز....عذرا

وإليك هذه الدراسة مدافعاً عنك شارحاً للكل كيف أنت عند المعصية وبعدها لعل في ذلك درساً لكل عاص تسول له نفسه المضي قدماً في معصيته فامرأة العزيز وان ابتليت في عملها بأشد الهزائم، لكن هذه الهزيمة في مسير الذنب كانت سببا لان تنتبه ويستيقظ وجدانها النائم، وان تندم على ما فات من عملها.. والتفتت إلى ساحة اللّه ورحمته .

أولاً: المعصية

فماذا عن معصية امرأة العزيز؟

لقد تمثلت معصية امرأة العزيز في مراودتها ليوسف عليه السلام عن نفسه، ولم تتعد أكثر من المراودة ، بمعنى أن جريمة الزنا لم تتم وان ما حدث هو المراودة، فما معنى المراودة؟:

يقول الإمام الشعراوي في خواطره :﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾

المراودة:هي مطالبة برفق ولين في خداع يستر ما تريده ممن تريده، أي طالبته بلين ورفق في أسلوب يخدع ليتحرر مما هو فيه إلي ما تطلبه.

﴿ غَلَّقَتِ ﴾:الحدث يبالغ فيه إما لقوة الحدث أو لتكرار الحدث.

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ : أنت لا تستغيث إلا إذا خارت قواك.

ويقول الطبري في تفسيره:

يقول تعالى ذكره: وراودت امرأة العزيز ــ وهي التي كان يوسف في بيتها ــ عن نفسه أن يواقعها ،وعن ألسدي ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ قال أحبته.

وقوله: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾ يقول: وغلقت المرأة أبواب البيوت ، عليها وعلى يوسف لما أرادت منه وراودته عليه ، بابا بعد باب.

وقوله: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ ﴾ يقول جل ثناؤه: قال يوسف إذ دعته المرأة إلي نفسها وقالت له هلم إلى: اعتصم بالله من الذي تدعوني إليه وأستجير به منه .

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ يقول: إن صاحبك وزوجك سيدي .

وقوله: ﴿ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ يقول: أحسن منزلتي وأكرمني وائتمنني ، فلا أخونه،عن ابن إسحاق ، قال: ﴿ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ أمنني على بيته وأهله .

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يقول: إنه لا يدرك البقاء ، ولا ينجح من ظلم ففعل ما ليس له فعله ، وهذا الذي تدعوني إليه من الفجور ظلم وخيانة لسيدي الذي ائتمنني على منزله.

القرطبي :

أصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين.

﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾:غلق للكثير ولا يقال غلق الباب،يقال إنها سبعة أبواب غلقتها ثم دعته إلي نفسها، ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾ :هلم وأقبل وتعال.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾: أي أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه.

﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾: يعني زوجها، أي هو سيدي أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحاق والسدي،وقال ابن كثير :اخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه أي حاولنه على نفسه ودعته إليها وذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلي نفسها :﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع و﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير أي أن

بعلك ربي أحسن مثواي أي منزلي وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

نخلص مما سبق إلى أن المراودة:

هي عرض الشيء بأسلوب مزخرف ومزين، فيه لين يخدع، ويخرج المطلوب منه، أو المعروض عليه هذا الشيء، عن حالته الطبيعية ليلقى قبولا لدى الطرف الآخر.

وهذه هي أولى مراحل الزنا في هذه الحالة شب يوسف عن الطوق ، وأصبح شابا يافعا في بلاط امرأة العزيز: ﴿ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ وكان يوسف جميلا، نظرت المرأة إلي يوسف في لحظة تملكها فيها الشيطان ، وأخذت تراود نفسها أولا ، ويزين لها الشيطان فعل الفاحشة معه.

يقول الإمام الشعراوي في خواطره :

لكل عملية شعورية يتعرض لها الإنسان في الفعل ثلاثة عوامل، إدراك، فوجدان، فنزوع.كان الأول امرأة العزيز تنظر إلي يوسف لجماله ولا يوجد إربة أخرى تنظر إليه فيه لكن عندما بلغ أشده أصبح الخيال يسرح في أكثر من الإدراك وهو النزوع لأنها وجدت في نفسها إعجابا به.

وعلى هذا: فإن العلاقة بين امرأة العزيز ويوسف مرت بمراحل غواية منها وصد منه، وسنفصلها بعض الشيء.

ثانياً:مراحل الغواية والصد

المرحلة الأولى: المراودة الخفية:

يوسف شاب في بيت امرأة العزيز، وهى التي أكرمت مثواه من قبل ، ولها الفضل عليه من تربيتها له، وجعلته في بيتها، وتعامله معاملة غير معاملة العبيد في القصر ، وله ميزة عن غيره ، وتتنازعها العاطفة تجاهه ، فإن أمرته بشيء فيجب أن يطيعها، ولكنها تعرفه ، وتعرف أخلاقه ، وحياءه ، ورجاحة عقله ، وعلمه، فكيف سيكون الوصول إليه، إذاً ، عليها أن تعرض الأمر عليه بمكر المرأة ودهائها ، كإشارات،وتلميحات، وإيحاءات ، لعلها تجد منه استجابة، فلم تجد منه ما يشير إلي أنه استجاب إلي ما ترمى إليه ، إذا فماذا تفعل ؟ أخذت تنازع نفسها ، إنها تريده ، وبأي شكل يجب أن تناله ، والمرآة لا تحب من يتجاهلها وتحب أن تكون مطلوبة ، والتجاهل يثير ثائرتها ، وتعقد العزم وتصر على أن تنال غايتها أيا كانت ، وبأي أسلوب ، أو أية طريقه ، ولا ترضى بالاستسلام.

المرحلة الثانية: الغواية المكشوفة

قامت امرأة العزيز في هذه المرحلة بالعرض، فقد يكون يوسف خائفا أو مترددا. فقامت بصرف العبيد وسدنتها، ونعرف أنه يقيم في بيتها، وقامت بغلق أبواب القصر إغلاقا محكما: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ ، وتزينت كزينة المرأة لزوجها. وأبرزت مفاتنها له، لعله تنازعه نفسه، وتتحرك أحاسيسه عندما يراها في هذه الفتنة، ويميل إليها، خاصة، وأنه شاب وليست لديه خبرة الرجال في تمالك الأعصاب في مثل هذه المواقف. ولكن خاب ظنها، فلم ينظر إليها وتجاهلها، بل واستحي منها. فزاد حنق امرأة العزيز على يوسف، فما كان منها إلا أن تدخل في المرحلة التالية.

المرحلة الثالثة: التصريح الواضح لفعل الفاحشة

ماذا تفعل امرأة تملكها الشيطان ، في رجل لم يتحرك لكل ما سبق من أساليب المراودة والغواية ، الباطنة منها ، والمكشوفة ، فكان لابد من التصريح، ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ :أي إني قد تزينت وهيأت نفسي وتجهزت من أجلك فأنالك هنا أسقط في يد يوسف ، واهتز داخليا في نفسه بسبب هذا الطلب الذي لم يكن يتوقعه ، المرأة التي تربى في بيتها وأكرمته ، وهي التي كانت تلاعبه وتداعبه وهو صغير، وجعلها مثل أمه التي فقدها صغيرا ، تطلب منه هذا الطلب الفاحش. ماذا يفعل يوسف ؟ فكان لابد من التذكير ، أي تذكير امرأة العزيز لتعود إلي رشدها.

ثالثاُ:مراحل التذكير:

المرحلة الأولى:التذكير بالله:

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ : وهى أعلى مراتب التذكير والتذكر ولا تعلوها أي مرتبة أخرى.

أي أن الله لم يأمر بهذا الفعل الفاحش ؛ وهنا نذكر حديث رسول الله في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ الإِمام الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلان تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امرأة ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ﴾ --- (صحيح البخاري).

لم تتعظ امرأة العزيز بهذا التذكير ، فنزل درجة من درجات التذكير.

المرحلة الثانية: التذكير بمن رباه

فأراد أن يذكرها بمن له الفضل عليه وعليها، لأنها زادت في الإلحاح في طلبها، فقال لها: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾.أي أن الذي تطلبين منى أن أخونه هو من رباني ، وعهد بي إليك ، وأكرمني وأحسن وفادتي وتربيتي ، وهو الذي قال لك: ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾: فكيف تطلبين منى أن أخونه، لكن امرأة العزيز لم تلق بالا لهذا أيضا؛ وظلت مستمرة في طلبها الشاذ، فنزل منزلة أخرى.

المرحلة الثالثة: التذكير بسوء العاقبة:

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ ﴾: لم يكن أمام يوسف إلا الورقة الأخيرة لديه ، فهي لم تتعظ بتذكيره لها بالله ولجوءه إلى الله ، وأن الله لم يأمر بهذا ، وأنه لا يمكن أن يخون صاحب البيت ، فكان يجب أن يكون التذكير الأخير بشدة وغلظة لصدها ، ويذكرها بآخر ما لديه من أسباب عدم الفعل فقال لها: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ ﴾:وهو أن من يفعل هذا الفعل لا يمكن أن يفلح في الدنيا أو في الآخرة ، لأنه سيكون ظالما لنفسه أمام الله ، وللرجل الذي رباه ، ولأن الله دائما بالمرصاد لكل خوان أثيم.

وللتدليل على ذلك سنعطى مثلا: هب أن أحدا أراد منك فعل إساءة ما إلى إنسان له فضل عليك، وأنت مخلص لله ولهذا الرجل، فماذا كنت ستفعل ؟أظن أنك ستقول له أولا: اتق الله ، أو أنك ستذكره بالله، وإذا أصر وأنت لا تريد الفعل ، ستذكره بأفضال هذا الرجل عليك . وإذا زاد إصراره وإلحاحه أظن أنك ستوبخه وستزجره . وهذا هو ما فعله يوسف مع امرأة العزيز.

رابعاً:مفهوم الهم

ما هو الهم ؟ هناك همان :هم حديث نفس -- وهم للفعل (حركه)

وهمّ حديث النفس عدة أنواع :

الأول:هو هم الحزن، مثل الحزن على فقدان حبيب أو مال أو ما شابه ذلك.

الثاني:هم حديث النفس(هم النفس)، وهو انشغال العقل بقضية ما تشغل بالنا وتؤرق حياتنا، ونتدبر فيها كيفية حلها، فقد يأخذ حلها وقتا، قد يطول هذا الوقت أو قد يقصر. فمثلا نقول: أن الدين هم بالليل ومذلة بالنهار ونفكر في كيفية تسديد هذا الدين، أو مشكلة ما في العمل وهكذا.

الثالث: وهو المؤدى إلي الهم الحركي، فلكي يقوم الإنسان بعمل شيء ما فإنه يمر بعدة مراحل للقيام بهذا العمل:

(١) فكرة تمر بعقل الإنسان حديث نفس.

(٢) تدبر هذه الفكرة حديث نفس.

(٣) عقد العزم على تنفيذ هذه الفكرة حديث نفس.

(٤)الاستعداد للقيام للتنفيذ حديث نفس.

(٥)القيام بالتنفيذ فعل(حركه).

ولكن تأتى مرحلة دقيقة تلي الاستعداد للقيام بالفعل، والقيام بالتنفيذ للفعل، وهذه هي مرحلة الهم. إذاً فان الهم الحركي للفعل :هو مرحلة تلي الاستعداد للعمل والعمل نفسه. وهذا كان هم امرأة العزيز.

الرابع:وهناك هم أخير، يسمى هم رد الفعل: وهذا الهم سنعطى له مثلا ولله المثل الأعلى: هب أن رجلا قام بمحاولة الاعتداء عليك، وهم بضربك، فماذا كنت ستفعل ؟ هل ستتركه ؟أم ستهم أنت أيضا بالدفاع عن نفسك، إذا هناك همان حركيان:

الأول: هم فعل.... والثاني: هم رد فعل.

امرأة العزيز أعظم تائبة في التاريخ

لقد خُلق الإنسان وفيه استعداد للخير واستعداد للشر. خُلق على طبيعة مزدوجة كما نرى في خلق آدم، قبضة من الطين ونفخة من الروح، فالطين يدفع به إلى الأسفل والروح تنزع به إلى الأعلى، وهناك صراع بين هذين النموذجين أو هاتين الركيزتين في النفس الإنسانية. فأحياناً الإنسان يغلب عليه طينه وينزل إلى الأسفل ويكون كالأنعام أو أضل سبيلا، وأحياناً يرقى به الروح ونفخة الروح فيصبح كالملائكة، ولذلك حينما تحدث الله ﷻ عن النفس قال سبحانه وتعالى في سورة الشمس ٧-١٠:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾.

فالنفس ملهمة، بطبيعتها الفجور والتقوى، الاستعداد للفجور والاستعداد للتقوى، عندها استعداد لأن ترقى واستعداد لأن تهبط، فلذلك كان على الإنسان أن يغالب نفسه.

والله ﷻ حينما خلق الإنسان خلقهً مختاراً،لم يخلقه كالملائكة مفطوراً على الطاعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون، ولم يخلقه كالبهائم أو السباع يفعل ما توحيه الغريزة.

إنما هو إنسان عنده عقل، وعنده إرادة، وعنده حرية الاختيار، فلذلك الإنسان لابد أن يجاهد نفسه، ولو استذاب لغرائزه وللمغريات الأخرى، ومن هذه المغريات أنه قد سُلط عليه الشيطان.

قال أحد الصالحين:

إني بُليت بأربع يرمينني بالنبل عن قوس له توتير.

إبليس والدنيا ونفسي والورى يا ربي أنت على الخلاص قدير.

ولقد ذكر العلماء للتوبة الصحيحة أركانًا ينبغي أن تتوفر وهي:

أولاً: الإقلاع عن الذنب: فيترك التائب الذنب الذي أراد التوبة منه باختياره، سواء كان هذا الذنب من الكبائر أم من الصغائر.

ثانيًا: الندم على الذنب: فهذا الركن مقومات التوبة فيه مقوم نفسي، وهو ــ كما قال الإمام الغزالي ــ يتكون من علم وحال وعمل أي هو الجانب المعرفي في التوبة، فالإنسان يعرف خطأه، وإنه سلك مع الله سلوكاً غير لائق، ويعرف آثار هذه الذنوب، وآثار المعاصي في دنياه وفي آخرته، وعلى نفسه، وعلى صحته، وعلى أخلاقه، وعلى أسرته، وعلى أولاده بمعنى أن يندم التائب على فعلته التي كان وقع فيها ويشعر بالحزن والأسف كلما ذكرها.

يعرف هذا، ويعرف مقام الله ﷻ ويعرف حاجته إلى التوبة، وهذا هو ما يعرف بالجانب المعرفي.

وهذا الجانب المعرفي يترتب عليه جانب وجداني، ويطلق عليه الإمام الغزالي الحال، وهو ما يعرف بالندم.

الندم، أي بعدما يعرف الإنسان خطأه ، يترتب عليه أن يندم، إذا انتبه القلب إلى آثار المعاصي ندم الإنسان.

والندم هو في الواقع شعور.. توتر يحس به الإنسان بلسعة تلسع كأنها نار تحرقه، احتراق داخلي.

ولقد حدثنا ربنا سبحانه وتعالى عن نفسية التائبين في سورة التوبة حيث قال: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ ﴾

هذا حالتهم ، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، على سعة الدنيا يتهيأ له إنها أصبحت كأنها حلقة صغيرة، وضاقت عليه نفسه، وظن أن لا ملجأ من الله. فلابد من تولد هذه الحالة النفسية وهذا الشعور بالحسرة، والحزن على ما فات وما فرط في جنب الله.

بعد ذلك يؤثر هذا في ناحية أخرى وهي ناحية العزم والتصميم بالنسبة للمستقبل، ندمت على ما فات لابد من العزم على إصلاح ما هو آت.

ثالثًا: العزم على عدم العودة إلى الذنب: وهو شرط مرتبط بنية التائب، وهو بمثابة عهد يقطعه على نفسه بعدم الرجوع إلى الذنب.

رابعاً: الاستدراك ورد الحقوق وتتمثل في:

أولاً: حقوق الله عز وجل:

وهي إما أوامر وطاعات قد قصَّرت فيها، أو مناهي ومعاصي ارتكبتها.

أما الطاعات، فإن كنت قد تركت صلاة، أو صليتها فاقدة شرطًا من شروط صحتها، فيجب عليك أن تقضيها كلها إذا كنت تعلم عددها، فإن كنت لا تعلم عددها أو تشك فيه، فخُذ بغالب الظن بعد الاجتهاد والتحري. ثم لتكثر بعد ذلك من صلوات النوافل، كالسنن الراتبة وقيام الليل.

وإن كنت تركت صيام يوم أو أيام من صيام الفريضة، فأحصِ عددها واقضها، ثم زد بعد ذلك من صوم النافلة، كالاثنين والخميس والأيام البيض.

وأما إن كان فرَّط في الزكاة، فيحسب ما كان يجب عليه إخراجه ويخرجه على حسب غلبة ظنه.

وإن كان تيسر له سبيل الحج واستطاع ولم يحج، فعليه أن يبادر بالحج، وأن يسعى لأداء الفريضة قبل أن يدركه الموت.

وأما المعاصي، فيجب أن يحصيها، بأن ينظر في أيامه وساعاته، ويفتش في جوارحه، ويسجل كل معاصيه، من صغائر وكبائر، ثم يسعى في تكفيرها كلها.

ثانيًا: حقوق ومظالم الناس:

شدد الشرع في حقوق ومظالم العباد ما لم يشدده في حقوق الله عز وجل، فقد ألزم الشرع التائب أن يرد الحقوق إلى أصحابها إن كانوا أحياء، أو إلى ورثتهم إن ماتوا. فإن لم يستطع ردها فليستحل منه بعد إعلامه بها، إن كان حقًّا ماليًّا أو جناية على بدنه، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ).

فإن لم يسامحه صاحب الحق ويتحلل له فعليه أن يسعى ما استطاع في تحصيل هذا الحق ورده إلى صاحبه.

فإن لم يجد أصحاب الحقوق ولا ورثتهم، فعليه أن يتصدق بهذه الحقوق عن أصحابها، ويدفعها إلى الفقراء والمحتاجين، أو إلى جهات الخير ومصالح المسلمين.

أما المظالم الأدبية، كالغيبة والسب والسخرية والاستهزاء، فقد اختلف العلماء في كيفية التوبة منها، فقال بعضهم: يجب على التائب إعلام من اغتابه أو سبه، والتحلل منه، وقال البعض الآخر: يتوب بينه وبين الله، ولا يشترط إعلام من قذفه أو اغتابه.

والقول الوسط بينهما هو: إن لم يترتب على إخباره وإعلامه مفسدة وضرر، فيجب إخباره والتحلل منه، وإن ترتب على إخباره مفسدة أو ضرر، فتُدفَع المفسدة، ويتوب بينه وبين الله ولا يخبره، ويدعو له.

فالتحلل من حقوق الناس أي العزم على إصلاح ما هو آت يعتبر من أهم مراحل التوبة لأنه يؤدي إلى حرج التائب ولا شك لأن الذنب إذا كان متعلقًا بحقوق الناس، فلابد أن يعيد الحق لأصحابه، أو يطلب منهم المسامحة، وهو ما يعرف بالجانب العملي وهو الجانب الذي يأتي بعد الجانب الوجداني والإرادي حيث ينبثق السلوك العملي، وهو أن يقلع بالفعل من المعصية، وهذا الجانب العملي له فروع منها، أن يستغفر الله –تعالى– بلسانه قال سبحانه وتعالى في سورة الأعراف ٢٣: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

من ناحية أخرى كما قال الرسول ﷺ "وأتبع السيئة الحسنة تمحها" وكما قال الله تعالى في سورة هود ١١٤: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

فعليه إنه يغير السيئة بحسنة، يبدل السيئة بالحسنة.. يتبعها بحسنة وخصوصاً حسنة من جنسها.

إذا صدقت التوبة لابد أن يتبعها سلوك، سلوك ناشئ عن وجدان، عن توتر، عن الندم وعن العزم، ولذلك يقول سبحانه وتعالى في سورة طه ٨٢:

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

ويقول سبحانه وتعالى في آخر سورة الفرقان : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

ولابد مع التوبة بعد ذلك من تجديد الإيمان، لأن الذنوب تخدش الإيمان فلابد أن نرمم هذا الإيمان بالتوبة، وهو إيمان يتبعه عمل للصالحات.

يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة ١٦٠: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾

ويقول سبحانه وتعالى في سورة آل عمران ٨٩ :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

ويقول سبحانه وتعالى في سورة النساء ١٤٦ :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾

ويقول سبحانه وتعالى في سورة النور ٥ :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

الاجتماع الملكي

لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك دقيقا ومدروسا ومنطقيا إلى درجة انه جذب الملك وحاشيته إليه، إذ كان يرى أن سجينا مجهولا عبر رؤياه بأحسن تعبير وتحليل، دون أن ينتظر أي اجر أو يتوقع أمرا ما.. كما انه أعطى للمستقبل خطة مدروسة أيضا.

لقد فهم الملك إجمالا أن يوسف لم يكن رجلا يستحق السجن ، بل هو شخص أسمى مقاما من الإنسان العادي ،دخل السجن نتيجة حادث خفي ، لذلك تشوق لرؤيته ، ولكن لا ينبغي للملك أن ينسى غروره ويسرع إلى زيارته ، بل أمر أن يؤتى به إليه كما يقول القرآن :

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ ﴾ ثم أرسل في طلبه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ ﴾ لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون أن يثبت براءته، فالتفت إلى رسول الملك وقال:

﴿ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ ﴾.

إذن .. فيوسف لم يرغب أن يكون كأي مجرم ، أو على الأقل كأي متهم يعيش مشمولا بعفو الملك .. لقد كان يرغب أولا أن يحقق في سبب حبسه ، وان تثبت براءته وطهارة ذيله ، ويخرج من السجن مرفوع الرأس ، كما يثبت ضمنا تلوث النظام الحكومي وما يجري في قصر وزيره، اجل فلقد اهتم بكرامة شخصيته وشرفه قبل خروجه من السجن ، وهذا هو نهج الأحرار.

الطريف هنا أن يوسف في عبارته هذه أبدى سموا في شخصيته إلى درجة انه لم يكن مستعدا لان يصرح باسم امرأة العزيز التي كانت السبب المباشر في اتهامه وحبسه ، بل اكتفى بالإشارة إلى جماعة النسوة اللاتي لهن علاقة بهذا الموضوع فحسب ونحن كذلك وحتى قبل أن يفتضح الأمر لم نكن نعرف شيئاً عن المرأة ولا عن زوجها ، من هو ومن هي حتى قال النسوة ﴿ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ ﴾.

الحقيقة أول مرة نعرف أنّ سيدنا يوسف كان في بيت عزيز مصر وأنّ المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز ، وهذه طريقة في حبكة القصة رائعة جداً ، أخّر إعطاء القارئ هوية هذا الرجل الذي اشتراه ، وقال الذي اشتراه من مصر ، من ؟ لا نعرف ، وقال لامرأته أكرمي مثواه ، وراودته التي هو في بيتها ، بعد مرحلة متقدمة من القصة ، عرفنا أنّ هذه المرأة التي راودته عن نفسها هي امرأة العزيز ، وأنّ هذا الرجل الذي اشتراه هو عزيز مصر، ويبدو من السياق أنّ هؤلاء النسوة كنّ من الطبقة الراقية ، رقياً دنيوياً ، أي من طبقة الأغنياء والمقربين إلى القصر .

ثم يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجني شعب مصر ولا جهازه الحكومي وبأي سبب وصلت السجن، فاللّه مطلع على ذلك ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾.

عاد المبعوث من قبل الملك إلى يوسف مرة ثانية إلى الملك ، واخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إبائه وعلو همته ، لذا عظم يوسف في نفس الملك وبادر مسرعا إلى إحضار النسوة اللائي شاركن في الحادثة ، والتفت إليهن وسألهن سؤالاً محدداً:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ﴾

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾

والخطب، هو الحدث الجلل، فهو حدث غير عادى يتكلم به الناس، فهو ليس حديثا بينهم وبين أنفسهم، بل يتكلمون عنه بحديث يصل إلى درجة تهتز لها المدينة.

وقول الملك هنا يدل على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتز لها، واعتبرها خطبا مما يوضح لنا أن القيم هي القيم في كل زمان ومكان.

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾

يجب أن تقلن الحق..إذ أنه من الواضح أن الملك كان قد استعلم بطريقته عن ما حدث ليوسف وأنه بعد أن انتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف في قصر العزيز في تلك الغوغاء والهياج ، وبعد أن علم أن خبره قد وصل إلى سمع العزيز .. ومن مجموع هذه المجريات اتضح له أن يوسف لم يكن شابا عاديا، بل كان طاهرا لدرجة لا يمكن لأي قوة أن تجره إلى الانحراف والتلوث ، واتضحت علامات هذه الظاهرة من جهات مختلفة ، فتمزق قميصه من دبر، ومقاومته أمام وساوس نسوة مصر، واستعداده لدخول السجن وعدم الاستسلام لتهديدات امرأة العزيز بالسجن والعذاب الأليم ، كل هذه الأمور كانت أدلة على طهارته لا يمكن لأحد أن يسدل عليها الستار أو ينكرها ولازم هذه الأدلة إثبات عدم طهارة امرأة العزيز وانكشاف أمرها، وعلى اثر ثبوت هذا الأمر فان الخوف من فضيحة جنسية في أسرة العزيز كان يزداد يوما بعد يوم .

فكان الرأي بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس اسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أولاً، وليشيع بين الناس أن المذنب الأصلي هو يوسف ثانيا، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

التعبير بكلمة بدا التي معناها ظهور الرأي الجديد، يدل على أن مثل هذا التصميم في حق يوسف لم يكن من قبل، ويحتمل أن تكون هذه الفكرة اقترحتها امرأة العزيز لأول مرة.. وبهذا دخل يوسف النزيه ــ بسبب طهارة ثوبه ــ السجن ، وليست هذه أول مرة ولا آخرها أن يدخل الإنسان النزيه بجريرة نزاهته السجن ففي المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين الذين يسيرون مع التيار وليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب ، .. بل إن الأفراد النجباء كيوسف الذي لا يتلاءم مع ذلك المحيط ولونه، ويتحرك على خلاف مجرى

الماء، ومثل ما تهبط الجثث السليمة في قاع المحيط فإنك ترى الجيف تصعد في أعلاه وتطفو والعجيب أنك تجد في علوم اللغة أن كلمة شر تجمع على شرور، أما كلمة خير فلا جمع لهـا وهكذا الحياة تجد الشر له أعوانه ومريديه ومخالبه قوية أما الخير فقدره أن يكون وحيداً وعلى الرغم من فرديته إلا أن الحق عودنا دائماً أن النصر والغلبة له دائما والمسألة مـسألة وقـت لماذا ليكون الشر وأعوانه جند من جنود الحق.

وهكذا بعد أن اجتمعت لدى الملك كافة خيوط القضية جاءت اللحظة الحاسمة لحظة المواجهة بين يوسف الحاضر الغائب وبين النسوة وفي حضرة أزواجهن:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ﴾

ماذا حدث؟ وماذا فعلتن مع يوسف؟. فتيقظ فجأة الوجدان النائم في نفوسهن، وأجبنـه جميعـا بكلام واحد متفق على طهارته و

﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ﴾.

إنه لم يسألهن رأيهن في يوسف حتى يجبنه بتلك الإجابة المعروفة لديه مسبقاً وإنمـا سـألهن سؤالا محدداً: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ﴾

فلم يجبنه، وفضلن الصمت فأزواجهن كانوا حضورا بالمجلس وهم الذين دبروا دخول يوسف للسجن بعدما ثبتت براءته عندهم، ولم يشملهم ــ أي السادة الوزراء ــ يوسف عليـه الـسلام بكلامه وكذلك لم يرد ذكر من كانت السبب وراء هذا كله في حديثه.

أما امرأة العزيز التي كانت حاضرة أيضا، وكانت تصغي بدقة إلى حديث الملك ونسوة مصر، فلم تجد في نفسها القدرة على السكوت ، ودون أن تسال أحست بان الوقت قد حان لان تنـزه يوسف وان تعوض عن تبكيت وجدانها وحيائها وذنبها بشهادتها القاطعة في حقه ، وخاصـة أنها رأت كرم يوسف المنقطع الـنظير من خلال رسالته إلى الملك ،إذ لم يعرض فيها بالطعن في شخصيتها وكان كلامه عاما ومغلقا تحت عنوان نسوة مصر.

فكأنما حدث انفجـار فـي داخلهـا فجـأة وصـرخت و :﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

وكانت من قبل قد اعترفت أمام النسوة، يوسف ٣٢:

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ ﴾.

أي ظهر الحق وعلاماته للجميع ولا أستطيع أن أخفيه أكثر من هذا، قالت:

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قالت هذا حتى تعلن براءة يوسف عليه السلام وأنها لم تنتهز فرصة غيابه في السجن وتنتقم منه لأنه لم يستجب لمراودتها له، ولم تنسج له أثناء غيابه المؤامرات، والدسائس، والمكائد.

وبعد أن اعترفت امرأة العزيز بما فعلت قالت:

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي أنها أقرت بأنه سبحانه وتعالى لا ينفذ كيد الخاطئين ولا يوصله إلى غايته وتواصل امرأة العزيز فتقول :﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهي لم تحضر لتبرئ نفسها بل لتبرئة يوسف من كل اتهام.

بهذه الكلمات عاشت امرأة العزيز في سعادة نفسية وطمأنينة روحانية هانت معها كل أمور الدنيا، وأدركت أن حياة المعصية حياة لا قيمة لها،لأن الحياة الحقيقية هي حياة الطمأنينة بالاستقامة والطاعة والإيمان، وهذه هي التي قال فيها بعض الصالحين: نحن نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف.

بمعنى أنه من فضل الله إن الملوك لا يعرفون قيمة السعادة الروحية فتركوهم يستمتعون بها دون أن ينافسوهم عليها، لو علموا بقيمتها لجالدوهم عليها بالسيوف.

هذه هي السعادة الروحية، وهي التي قالتها أم كلثوم بنت على بن أبي طالب لعمر حينما تغاضبا يوماً، فقال لها: "لأشقينكي"، قالت له: "لا تستطيع، لأني لو كانت سعادتي في مال لحرمتني منه، أو في زينة لقطعتها عني، ولكني أرى سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي".

فهذه هي السعادة التي يحسها التائبون إلى الله، والذين وضعوا أيديهم في يد الله، إنها السكينة التي قال الله فيها في سورة الفتح ٤:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾.

إنها الطمأنينة يقول سبحانه وتعالى في سورة الرعد ٢٨:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

والطمع في رحمة الله تعالي : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ،فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة الزمر ٥٣:

﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ ﴾.

الذنوب جميعاً تغفر بالتوبة، حتى الشرك! حتى الكفر، لأن الإنسان إذا كان مشركاً، وكافراً وتاب يتوب الله عليه يقول سبحانه وتعالى في الأنفال ٣٨:﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ ﴾

والله –تعالى– قال للمشركين في سورة التوبة ٥:﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ ﴾

وقال تعالى في التوبة ١١:﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١ ﴾.

فالتوبة تجبُّ ما قبلها ومنها التوبة من الشرك، والتوبة من النفاق، والتوبة من الكبائر، والتوبة من الصغائر، التوبة من كل ذنب، حتى المنافقين، ربنا –سبحانه وتعالى– قال في شأنهم في سورة النساء ١٤٥: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٤٦ ﴾

فباب التوبة مفتوح للجميع، كل ما في الأمر أن تكون توبةً صادقة، توبة خالصة، توبة نصوحاً كما عبر القرآن الكريم.

استدراك:

في الحقيقة إن قول امرأة العزيز:

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ ﴾

فإننا نلتمس من قولها ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ لأني عرفت بعد هذه المدة الطويلة وما عندي من التجارب ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾.

بناء على أن الجملة المتقدمة لامرأة العزيز كما يقتضيه ظاهر العبارة ، فإنها ومن اجل اعترافها الصريح بنزاهة يوسف وما أخطأته في حقه ، تقيم دليلين :

الأول : أن وجدانها، ويحتمل بقايا علاقتها بيوسف ، لا تسمح لها أن تستر الحق أكثر من هذا، وان تخون هذا الشاب الطاهر في غيابه .

الثاني : أن من مشاهدة الدروس المليئة بالعبر على مرور الزمن تجلت لها هذه الحقيقة ، وهي أن اللّه يرعى الصالحين ولا يوفق الخائنين في مرادهم أبدا.

وبهذا بدأت الحجب تنقشع عن عينيها قليلا قليلا .. وتلمس حقيقة الحياة ولا سيما في هزيمة عشقها الذي صنع غرورها وشخصيتها الخيالية ، وانفتحت عيناها على الواقع أكثر، فلا عجب أن تعترف هذا الاعتراف الصريح .

وتواصل امرأة العزيز القول: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ ﴾ وبحفظه وإعانته نبقى مصونين ، وأنا أرجو أن يغفر لي ربي هذا الذنب :

﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قال بعض المفسرين: إن الآيتين الأخيرتين من كلام يوسف، وقالوا: إنهما في الحقيقة تعقيب لما قاله يوسف لرسول الملك ومعنى الكلام يكون هكذا.

إذا قلت حققوا عن شان النسوة اللائي قطعن أيديهن ، فمن اجل أن يعلم الملك أو عزيز مصر الذي هو وزيره ،أني لم أخنه في غيابه واللّه لا يهدي كيد الخائنين كما لا أبرئ نفسي لان النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم .

الظاهر أن الهدف من هذا التفسير المخالف لظاهر الآية أنهم صعب عليهم قبول هذا المقدار من العلم والمعرفة لامرأة العزيز التي تقول بلحن مخلص وحاك عن التنبه والتيقظ.

والحال انه لا يبعد أن الإنسان حين يرتطم في حياته بصخرة صماء، تظهر في نفسه حالة من التيقظ المقرون بالإحساس بالذنب والخجل ، خاصة انه لوحظ ان الهزيمة في العشق المجازي يجر الإنسان إلى طريق العشق الحقيقي عشق اللّه .

وبتعبير علم النفس المعاصر: إن تلك الميول النفسية المكبوتة يحصل فيها حالة التصعيد وبدلا من تلاشيها وزوالها فإنها تتجلى بشكل عال.

ثم إن قسما من الروايات التي تشرح حال امرأة العزيز ــ في السنين الأخيرة من حياتها ــ دليل على هذا التيقظ والانتباه أيضا.

وبعد هذا كله فربط هاتين الآيتين بيوسف ــ إلى درجة ما ــ بعيد، وهو خلاف الظاهر بحيث لا ينسجم مع أي من المعايير الأدبية للأسباب الآتية:

أولا: كلمة ذلك التي ذكرت في بداية الآية هي بعنوان ذكر العلة، أي علة الكلام المتقدم الذي لم يكن سوى كلام امرأة العزيز فحسب، وربط هذا التذييل بكلام يوسف الوارد في الآيات السابقة أمر عجيب.

ثانيا: إذا كانت هاتان الآيتان بيانا لكلام يوسف فسيبدو بينهما نوع من التناقض والتضاد، فمن جهة يقول : أني لم أخنه بالغيب ، ومرة يقول : وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء. وهذا الكلام لا يقوله إلا من يعثر أو يزل ولو يسيرا، في حين أن يوسف لم يصدر منه أي زلل.

وثالثا: إذا كان مقصوده آن يعرف عزيز مصر انه بري ء فهو من البداية بعد شهادة الشاهد عرف الواقع ، ولذلك قال لامرأته : (استغفري لذنبك) وإذا كان مقصوده انه لم يخن الملك ، فلا علاقة للملك بهذا الأمر، والتوسل إلى تفسيرهم هذا بحجة أن الخيانة لامرأة العزيز خيانة للملك الجبار، فهو حجة واهية ــ كما يبدو ــ خاصة أن حاشية القصر لا يكترثون بمثل هذه المسائل .

وخلاصة القول : أن هذا الارتباط في الآيات يدل على أن جميع ما ورد في السياق من كلام امرأة العزيز التي انتبهت وتيقظت واعترفت بهذه الحقائق وبهذا يمكننا وصفها بأنها أعظم تائبة في التاريخ ولم تجد حظها من الإنصاف مثل ما وجدت حظها من التشهير.

شروط التوبة:

١ــ ويشترط أن تكون التوبة قبل الغرغرة، والغرغرة هي بلوغ الروح الحلقوم، فمن وصل إلى حدّ الغرغرة لا تقبل منه التوبة، فإن كان على الكفر وأراد الرجوع إلى الإسلام لا يقبل منه، وإن كان فاسقًا وأراد التوبة لا يقبل منه؛ وقد ورد في الحديث الشريف: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر« رواه الترمذي ، قال تعالى في سورة النساء:١٧، ١٨ :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ

يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

٢ــ ويشترط أن تكون قبل الاستئصال، فلا تقبل التوبة لمن أدركه الغرق مثل فرعون لعنه الله وكذلك يشترط لصحتها أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها، لما صح عن النبي عليه الصلاة والسلام: «إن في المغرب بابًا خلقه الله للتوبة مسيرة عرضه سبعون عامًا لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه« رواه ابن حبان.

٣ــ ولابد أن تكون التوبة أيضًا قبل طلوع الشمس من مغربها؛ لقوله تعالى في الأنعام:١٥٨:

يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه« رواه مسلم.

فمن أراد الله به خيرًا رزقه التوبة النصوح والكاملة والثبات عليها حتى الممات.

إن الله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين فلا يقنطن المؤمن من رحمة الله وليتُبْ إليه مهما بلغ عظم ذنوبه.

٤ــ ومنها أن يغير البيئة، فقد روى مسلم في صحيحه أن رجلاً من بني إسرائيل قتل مائة إنسان ثم سأل عالمًا: هل لي من توبة؟ قال له: ومن يحول بينك وبين التوبة، اذهب إلى أرض كذا فإن بها قومًا صالحين، يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك بصورة ادمي فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضيين فإلى أيهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة. وفي رواية في الصحيح: فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها، وفي رواية فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له.

فما أعظم التوبة وما أسعد التائبين، فكم من أناس فاسقين فاسدين بالتوبة صاروا من الأولياء المقربين الفائزين.

ملاحظات:

١ – هذه عاقبة التقوى رأينا في هذا القسم من قصة يوسف أن عدوته المعاندة امرأة العزيز اعترفت أخيرا بطهارته ، كما اعترفت بذنبها وخطئها .. وببراءته.. وهذه عاقبة التقوى وطهارة الثوب، وهذا معنى قوله تعالى في سورة الطلاق ٢:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾.

فكن طاهرا واستقم في طريق الطهارة فاللّه حاميك ولا يسمح للملوثين أن يسيئوا إليك .

٢ – الهزائم التي تكون سببا للتيقظ لا تكون الهزائم هزائم دائما، بل – في كثير من الأحيان – تعد الهزيمة هزيمة في الظاهر إلا أنها في الباطن نوع من الانتصار المعنوي ، وهذه هي الهزائم التي تكون سببا لتيقظ الإنسان ، وتشق حجب الغفلة والغرور عنه ، وتعد نقطة انعطاف جديدة في حياته .

فامرأة العزيز وان ابتليت في عملها بأشد الهزائم، لكن هذه الهزيمة في مسير الذنب كانت سببا لان تنتبه ويتيقظ وجدانها النائم، وان تندم على ما فات من عملها.. والتفتت إلى ساحة اللّه .

السعداء هم أولئك الذين يصنعون من الهزائم انتصارا، ومن سوء الحظ حظا حسنا، ومن أخطائهم طريقا صحيحا للحياة.

وبالطبع فليس رد الفعل من قبل جميع الأفراد إزاء الهزائم هكذا ... فالأشخاص الضعاف حين تصيبهم الهزيمة ييأسون ويكتنف القنوط جميع وجودهم ، وقد يؤدي بهم إلى الانتحار وهذه هي الهزيمة الحقيقية .

لكن الذين يشعرون بكرامتهم وشخصيتهم، يسعون لان يجعلوا الهزائم سلما لصعودهم وترقيهم وجسرا لانتصارهم.

٣ – الحفاظ على الشرف خير من الحرية الظاهرية رأينا أن يوسف لم يدخل السجن لطهارة ثوبه فحسب ، بل لم يكن مستعدا للخروج من السجن حتى يعود مبعوث الملك ويجري التحقيقات حول النسوة اللائي قطعن أيديهن لتثبت براءته ويخرج من السجن مرفوع الرأس ... لا أن يخرج كأي مجرم ملوث يشمله عفو الملك درس لكل الناس في الماضي والحاضر والمستقبل.

أعده

المهندس زهدي جمال الدين محمد